القسم الأول

جاذبية الحركات الجماهيرية

الفصل الأول

الرغبة في التغيير

1

مـن البدهيّ أن كثيرًا من الذيـن ينضمّون إلى حركة ثورية صاعدة يتطلعون إلى تغيير مفاجئ كبير في أوضاعهم المعيشية.

إن الحـركات الثورية، بعبـارة أخرى هي أداة واضحة من أدوات التغيير.

إلا أنـه مـن الصحيح أيضًا، وإن لم يكـن من البدهيّ أن الحـركات الدينيـة والقومية يمكـن أن تكون، هـي الأخرى، وسائل للتغيير.

مـن الواضـح أن نوعًا مـن الحماسة والانفعـال ضروري لتحقيق أي تغيير كبير وسريع. ويستوي أن تجيء هذه الحماسة من توقع ثروات هائلـة، أو من الانخراط في حركة جماهيرية. في الولايات المتحدة كانت التغييرات المثيرة منذ الحرب الأهلية تتـمّ في جـو مشبع بحماسـة أوجدتهـا الفرص المتاحـة للفرد لتحسين وضعه. عندما تتقدم فرص تطوير الذات، أو لا يسمح لهـا بالعمل كقوة محفزة، يصبح من الضروري إيجاد مصادر بديلـة للحماسة إذا كنا بصدد تغيـيرات أساسية، مثل إيقاظ مجتمع نائم وتطويره، أو إدخال إصلاحات جذرية على طبيعة مجتمع مـا وأنماط حياتـه، وإبقاء هذه المصـادة حيّة نشطة.

ومن هنا يمكن النظر إلى كل من الحركات الدينية والثورية والقومية بوصفها معامل لتوليد هذه الحماسة العامة.

كانت الحركات الدينية في الماضي وسائل واضحة للتغيير. وما يميز دينًا ما من محافظة إنما يجيء بعد جمود القوى الحيوية التي واكبت ولادته. كانت الحركات الدينية الصاعدة تدعو إلى التغيير الشامل، وإلى التجريب، وكانت منفتحة على آراء وأساليب من كل اتجاه. كان الإسلام عند ظهوره حركة تنظيمية وتحديثية. وشكلت المسيحية تغييرًا حضاريًا وتحديثيًا بين قبائل أوروبا البدائية. كانت الحروب الصليبية ثم حركة الإصلاح البروتستانية(*) عوامل رئيسة في هذا العالم الغربي بعد جمود القرون الوسطى.

أمّا في العصور الحديثة، فقد كانت الحركات الجماهيرية التي استهدفت إحداث تغيير واسع شامل حركات ثورية وقومية، أو حركات تشترك في هاتين الصفتين. كان قيصر روسيا بيتر

(*) بدأت حركة الإصلاح الديني، التي عرفت فيما بعد بالبروتستانية، سنة 1517م على يد الأستاذ الجامعي والقسّ الألماني مارتن لوثر (1483 - 1546م) وانتقدت الحركة كثيرًا من ممارسات الكنيسة الكاثوليكية، مثل صكوك الغفران، وتقديس مريم العذراء، والاعتقاد بشفاعة القديسين عند الله، وكانت هناك حركات مماثلة في عدد من الدول الأوربية، انتهت بنشوء عدة مذاهب بأسماء مختلفة تنضوي جميعها تحت راية البروتستانية (المترجم).

الكبير(*) لا يختلف في إخلاصه للمبدأ وقوته وقسوته عن كثير من الزعماء الثوريين والقوميين، إلا أنه فشل في تحقيق هدفه الرئيس، وهو تحويل روسيا إلى دولة غربية، كان سبب فشله أنه لم يستطع أن يبث في الجماهير الروسية الحماسة التي تمتلك الوجدان، إما لعجزه عن القيام بذلك أو لاعتقاده بعدم أهمية هذا العمل. في ضوء ذلك لا نستغرب إذا وجدنا أن الثوار البلاشفة الذين قضوا على آخر قيصر من أسرة رومانوف(**) كانوا يشعرون بشيء من الألفة مع بيتر، برغم انتمائه إلى الأسرة المالكة نفسها. وليس من المستبعد أن ينظر التاريخ إلى الثورة البلشفية بوصفها محاولة لتحديث سدس مساحة العالم بقدر ما كانت محاولة لبناء اقتصاد شيوعي.

لقد تحولت الثورتان الفرنسية والروسية إلى حركتين قوميتين، وهذه الحقيقة تدلّ على أن القومية، في العصور الحديثة، أصبحت المصدر الأول لتوليد الحماسة الجماهيرية، كما تدل على أنه لا بد من استثمار الفوران القومي إذا أريد للتغييرات الجذرية التي استهدفتها الثورة أن تتحقق.

(*) يعدّ بيتر الكبير (1672 – 1725م) أعظم القياصرة الروس، وقد حكم روسيا سنة 1682م حتى وفاته، وفي عهده تحولت روسيا إلى أمبراطورية وقوة أوربية رئيسة (المترجم).

(**) العائلة القيصرية المالكة التي حكمت روسيا من سنة 1613م إلى سنة 1917م (المترجم).

ومـن هنا للمرء أن يتساءل عما إذا كانت الصعوبات التي تواجههـا الحكومة العمالية البريطانيـة الراهنة مرجعها أنها أرادت تغيير الاقتصاد وأسلوب الحياة لقرابة 49 مليون مواطن في جـو خالٍ من الانفعال والحماسة. شعر زعماء حزب العمال بالتقزز مـن الأساليب التي لجأت إليها الحركات الجماهيرية المعاصـرة، ولهذا أبقـوا حزبهم بعيدًا عـن الحماسة الثورية، إلا أن الاحتمـال مـا زال قائمًـا في أنهـم سيلجـؤون إلى إثارة التطرف القومي، بحيـث «تصبح الاشتراكية قومية، والقومية اشتراكية»[1].

إن نجاح اليابـان الأسطوري في التحـوّل إلى دولة حديثة لم يكـن ليتحقق لـولا روح الصحوة في القوميـة اليابانية. كما أنه من الصحيح «علـى الأرجح» أن التحديث الذي طال بعض الـدول الأوربيـة، وعلـى الأخص ألمانيـا، تسارع بسبـب شيوع الغليـان القومـي. ولنـا، بمتابعـة الإرهاصـات المعاصـرة، أن نتوقـع أن نهضـة آسيا لـن تتحقق إلا عبر الحـركات القومية. في تركيـا كان تصاعد حركة قومية تركية حقيقية سبب نجاح

(1) E. H. Carr, Nationalism And After, (New York: Mac Millan Company, 1945), P.20.

كمـال أتاتورك في تحديث الدولة بين عشية وضحاها(*) أما في مصـر، التي لم تعرف حـركات جماهيرية، فقد كان التحديث بطيئًـا ومتقطّعًا برغم أن حكّامها رحبوا، منذ عهد محمد علي بالأفـكار الغربية، وعلى الرغم مـن أن صلاتها بالغرب كانت وثيقـة ومتنوّعـة. والصهيونية تقدم نفسهـا لأتباعها على أنها تطويـر لدولة متخلفة سيحوّل أصحاب الدكاكين الصغيرة إلى زراع وعمـال وجنود. ولو استطاع تشانج كاي شيك(**) أن يبدأ حركـة جماهيريـة فعلية، أو على الأقل، لـو تمكن من الحفاظ علـى الحماسة القومية التي أشعلهـا الغزو الياباني، لكان الآن الشخص الذي يطوّر الصين.

(*) بدأ مصطفى كمال أتاتورك (1881 – 1938م) حياته العملية ضابطًا في الجيش العثماني، وأبدى كفاءة عالية قادتـه إلى انتصارات عسكرية، أهمها انتصاره على جيش الحلفاء في أعقاب الحرب العالمية الأولى في سنة 1923م أعلن إلغاء الخلافة وأصبح أول رئيس للجمهورية التركية وخلال مدة حكمه تخلص من كل التقاليد العثمانية وحول تركيا إلى علمانية على النسق الأوروبي (المترجم).

(**) رأس تشـانج كاي شيـك (1887م – 1975م) المجلس العسكـري في جمهورية الصـين الوطنيـة، وعند وفاة الزعيـم الصيني سن. يات. سـن تولّى الزعامة وقاد المقاومـة ضد الغزاة اليابانيين، إلا أنه خسر الحرب الأهلية التي اندلعت مـع الشيوعيين سنة 1945م، واضطر إلى اللجوء إلى جزيرة تايوان، حيث أقام حكومة منفى. (المترجم).

إلا أن فشله هذا هو الذي مكّن عباقرة «القدسنة» أي تحويل أي أهداف عملية إلى قضية مقدّسة، من تنحيته جانبًا. وليس من الصعب أن نفهم لماذا كان من المتعذر على أمريكا وبريطانيا (أو أي ديمقراطية غربية) أن تقوم بدور بارز في إيقاظ الأمم الآسيوية من تخلفها وجمودها: الديمقراطيات الغربية لا تريد ولا تستطيع لو أرادت إشعال الصحوة القومية بين ملايين آسيا. إن إسهام الديمقراطيات الغربية في يقظة الشرق كانت غير مباشرة وغير مقصودة: لقد أثارت النقمة ضد الغرب، وهذه النقمة هي التي تحرّك الشرق الآن، بعد قرون من الجمود.

على الرغم من أن الرغبة في التغيير قد لا تكون عميقة وقويّة، من المفيد أن نحلّل هذه الرغبة عسى أن تلقي بعض الضوء على الطريقة التي تعمل بها الحركات الجماهيرية، ومن هنا فسوف يكون سؤالنا اللاحق عن طبيعة الرغبة في التغيير.

2

تكمن فينا جميعًا نزعة إلى البحث، خارج أنفسنا، عن العوامل التي تصوغ حياتنا، يرتبط النجاح أو الفشل، عادة في أذهاننا بما يدور حولنا. وهكذا ترى أن الأشخاص الراضين

عن أنفسهم يعدّون هذا العالم طيّبًا ويحاولون المحافظة عليه، بينما نجد المحبطين يفضلون التغيير الجذري.

إن النزعة إلى البحث عن أسباب خارج أنفسنا تستمر، حتى عندما يكون من الواضح أن وضعنا هو نتيجة عوامل داخلية، كقدرتنا أو شخصيتنا أو مظهرنا أو صحتنا، وهلمّ جرّا. يقول ثورو(*): عندما يشكو المرء شيئًا يحول بينه وبين القيام بواجباته، حتّى عندما يجد ألمًا في أمعائه... فإنه يبادر إلى محاولة لإصلاح العالم [1].

من المفهوم أن الفاشلين ينزعون إلى تحميل العالم جريرة فشلهم. إلا أنه من العجيب أن الناجحين، بدورهم، مهما كان اعتزازهم بحصافتهم وخبرتهم وتوفيرهم، وبقية هذه الخصال الحميدة، يؤمنون، في قرارة أنفسهم، أن نجاحهم جاء نتيجة المصادفات والحظ السعيد. إن ثقة أكثر الناس نجاحًا في أنفسهم ثقة ناقصة؛ لأنهم ليسوا متأكدين من أنهم يعرفون كل العوامل التي كانت وراء نجاحهم.

(*) كان هنري ديفيد ثورو (1817 – 1862م) كاتبًا وفيلسوفًا أمريكيا، وكانت مقالاته عن البيئة وحمايتها رائدة في بابها ومهدت الطريق للاهتمام المعاصر بالبيئة (المترجم).

(1) Henry David Thoreu, Walden, Modern Li brary Edition (New York: Random House, 1937) , P. 69.

يبدو العالم الخارجي، من وجهة نظر هؤلاء، آلة تدور على نحو يستحيل ضبطه أو توقُّعه، وما دامت هذه الآلة تدور في صالحهم فإنهم يتجنبون العبث بها. وهكذا نرى أن الرغبة في التغيير والرغبة في مقاومة التغيير تنبعان من المصدر نفسه: الإيمان بتأثير العوامل الخارجية.

3

إن عدم الرضا، في حد ذاته، لا يخلق بالضرورة رغبة في التغيير: لا بدّ من وجود عوامل أخرى قبل أن يتحول عدم الرضا إلى تذمّر، وأحد هذه العوامل هو الإحساس بالقوّة.

إن الذين يخافون محيطهم لا يفكرون في التغيير مهما كان وضعهم بائسًا. عندما يكون نمط حياتنا مضطربًا واهيًا إلى درجة تمنعنا من التحكم في ظروفنا المعيشية، فسبيلنا الاحتماء بما هو مألوف. إننا نقاوم شعورنا بالخوف بإخضاع وجودنا لروتين ثابت، ونوهم أنفسنا أننا نستطيع، بهذه الوسيلة، تجنّب أي مفاجآت. وهكذا نجد الصيادين والبدو الرحل والمزارعين الذين يعتمدون على تقلبات الطقس، والفنانين الذين ينتظرون الإلهام، والرجل البدائي الذي يخشى محيطه، يخافون التغيير ويواجهون العالم، كما يواجهون قضاة يتحكمون في مصيرهم.

كما أن الفقراء فقرًا مدقعًا يرهبون محيطهم، ولا تراودهم رغبة في التغيير. تبدو الحياة خطرة عندما يتهددنا الجوع والبرد. من هنا نجد عند الفقراء نزعة محافظة بعمق النزعة المحافظة عند الأغنياء، وهذه النزعة لدى الطرفين عامل مهم في إبقاء الأوضاع القائمة.

إن الأشخاص الذين يندفعون لإحداث تغييرات واسعة يشعرون عادة، أنهم يمتلكون قوة لا تقهر، كان الجيل الذي صنع الثورة الفرنسية يؤمن إيمانًا قاطعًا بقوة العقل البشري الخارقة، وبالآفاق غير المحدودة المفتوحة أمام الذكاء البشري. يقول دي توكوڤيل(*) عن هذه الحقبة: إن الإنسانية لم تشعر قبلها قطّ بهذا الاعتزاز بنفسها وهذه الثقة بقوتها. وجنبًا إلى جنب مع هذه الثقة المفرطة بالنفس كان هناك ظمأ عالمي إلى التغيير سكن كل العقول بسهولة[1] ومن ناحية أخرى، كان لدى لينين(**) والبلاشفة الذين انطلقوا بلا حذر يخلقون الفوضى

(*) كان أليكس دي توكوڤيل (1805 – 1859م) مفكرًا سياسيًا ومؤرخًا فرنسيًا، اشتهر بكتاباته العميقة عن الديمقراطية الأمريكية والثورة الفرنسية (المترجم).

(1) ALEXIS de Tocqueville, On the State of Society In France Before the Revolution of 1789 (London: John Murray, 1888), PP. 198- 199.

(**) كان ڤلاديمير لينين (1870- 1924م) زعيمًا شيوعيًا بارزًا، قاد ثورة أكتوبر 1919م في روسيا وأصبح أول رئيس للدولة الثورية في سنة 1922م، وتُعرف نظرياته التي أسهمت في إثراء النظرية الماركسية باسم «اللينينية» (المترجم).

التـي تستهـدف إيجاد عـالم جديد إيمان أعمـى بقوة المذهب الماركسي. أمَّا النازيون فلـم يكن لديهم مذهب يماثل المذهب الماركسي قـوة، ولكنهم آمنوا بقائد معصوم يقودهم إلى حياة جديدة. من المشكوك فيه أن تحقق النازية ما حققته من نجاح لولا الاعتقاد بأن الخطط العسكرية المبتكرة التي اتبعتها ألمانيا والدعاية الفاعلة جعلت ألمانيا قوة لا تقهر.

حتـى الرغبة الواعيـة في التطور لا بد أن تكـون مدعومة بالإيمـان، الإيمـان بطيبـة الطبيعـة البشريـة والإيمـان بقوة العلـم المطلقـة. وهذا النوع من الإيمان فيـه شيء من التحدي وشيء من الهرطقة، شأنه شأن إيمان الذين يقول عنهم العهد القديم: «بنوا مدينة وصرحًـا يصل إلى السماء، وتصوروا أنه لا شيء مما حلموا به يمكن أن يستعصي عليهم»[1].

4

قـد يبدو، للوهلـة الأولى أن امتلاك القوة سيؤدي، في حد ذاتـه، إلى موقـف يتحـدّى العالم ويتطلـع إلى التغيـير، إلاّ أن الأمـور لا تسـير، بالضرورة، على هذا النحـو. قد يكون القويّ وديعًـا وداعـة الضعيف. مـا يهم ليـس امتلاك القـوة، ولكن

(1) Genesis ll: 4, 6.

الإيمـان المطلق بالمستقبـل. عندما يغيب هـذا الإيمان تصبح القوة داعمة للأوضاع القائمة ومناهضة للتغيير. وعلى العكس، عندمـا يكـون هناك أمل لا حـدود له في المستقبل فـإن الأمل، حتـى عندما يفتقـر إلى القوة، يمكـن أن يقـود إلى مغامرات يائسـة. سبب ذلـك أن المشحونين بالأمل يستمـدون القوة من أغرب المصادر، من شعار أو كلمة. إن الأمل الفاعل المحرك لا بّـد أن يكون أملًا في المستقبل. وهكذا نجد أن المذهب الفاعل، بالإضافـة إلى كونـه مصـدرًا للقوة، لا بـدّ أن يدّعي أنه يملك مفاتيح المستقبل.

إن الذيـن يحاولـون تغيـير أمـة مـا أو تغيـير العـالم لا يستطيعون تحقيق هدفهم بتوليد التذمر واستثماره، أو بإثبات أهميـة التغييرات المنشودة وضرورتهـا، أو بإجبار الناس على تغيـير أسلـوب حياتهم. علـى الراغبين في التغيـير أن يوقدوا الآمال الجامحة، وليس مـن المهم أن ترتبط هذه الآمال بجنة سماويـة، أو بجنة على الأرض، أو أن تنصبّ على نهب ثروات هائلـة من دول أخرى، أو على السيطـرة على العالم. إذا نجح الشيوعيـون في الفوز بأوروبا وبجزء كبير من العالم، فلن يكون هذا لأنهم استطاعـوا إشاعة التذمـر والكراهية، ولكن لأنهم عرفوا كيف يشعلون في النفوس الآمال الجامحة.

5

إن الفارق بين المحافظين والراديكاليين هو في الأساس فارق بين مواقفهم من المستقبل، يدفعنا الخوف من المستقبل إلى أن نتمسك بالحاضر، بينما يجعلنا الأمل في المستقبل متحمسين للتغيير. كل من الغني والفقير، والقوي والضعيف، والناجح والفاشل، قد يكون خائفًا من المستقبل. عندما يبدو الحاضر في أعيننا مثاليًا، بحيث إن أقصى ما يمكن أن نتوقعه هو استمراره في المستقبل، فإن التغيير بالنسبة لنا لا يعني سوى تدهور الوضع. ولهذا نجد رجالًا حققوا الكثير من المنجزات، ورجالًا يعيشون حياة مليئة نشطة يقفون، عادة، ضد أي تغيير جذري. والمحافظة التي تميز المرضى المقعدين وكبار السن تنبع بدورها من الخوف من المستقبل. يخشى هؤلاء أن يأتي المستقبل ومعه المزيد من علامات الضعف والوهن ويشعرون أن أي تغيير سوف يكون إلى الأسوأ. كما أن الفقراء فقرًا مدقعًا لا يشعرون بأى أمل في المستقبل الذي يبدو كما لو كان فخًّا منصوبًا أمامهم عليهم أن يتحاشوه. عند هؤلاء كلهم لا يعني التغيير سوى المتاعب.

إلا أن الصورة تختلف تمامًا عندما يدخلها الأمل. لا تهمّ طبيعة الشخص الذي يحركه الأمل الجامح، قد يكون مثقفًا

متحمّسًا، أو مزارعًا يتوق إلى المزيد من الأرض، أو نبيلًا أرستقراطيًا، أو تاجرًا أو صانعًا أو عاملًا بسيطًا. كل هؤلاء يتحدون الحاضر، ويدمرونه عند الضرورة، ويخلقون العالم الجديد الذي يمكن أن يحقق آمالهم. وهكذا نجد أنه يمكن أن تكون هناك ثورات يقودها أغنياء، بالإضافة إلى ثورات يقودها فقراء بدأت في بريطانيا في القرنين السادس والسابع عشر ثورة مُلاك(*) وكانت تستهدف تعزيز الملكيات الفردية وقصرها على ملاكها بدلًا من بقاء جزء منها مشاعًا كما كان عليه الوضع. نتيجة هذه الحركة أصبحت صناعة الصوف طريقًا إلى الرخاء، بينما أصبح الرعي أكثر جدوى من زرع المحاصيل. عندما قام الملاّك بطرد المزارعين العاملين لديهم، وأغلقوا أراضيهم في وجوه العامة، أحدثوا تغييرات عميقة في نسيج البلاد الاقتصادي والاجتماعي. «كان اللوردات والنبلاء يهدمون النظام الاجتماعي القائم، ويزيلون قوانين وأعرافًا قديمة بالعنف حينًا، وبالضغط والتهديد أحيانًا[1] كما قامت

(*) أدت هذه «الثورة» إلى تشريد مئات الآلاف من الفلاحين وحرمانهم مصدر دخلهم الوحيد، كما أدت إلى ارتقاء الملاك الزراعيين قمة الهرم الاقتصادي والسياسي، وبقيت آثارها مدة طويلة: في أواخر القرن التاسع عشر كان قرابة ألفي شخص يملكون نصف الأراضي الزراعية في إنجلترا وويلز (المترجم).

(1) Karl Polanyi, The Great Trans Formation (Ney York: Farrar And Rine Hart, INC, 1944), P.35.

في إنجلترا ثورة أغنياء ثانية مع نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، وهي الثورة الصناعية(*). ألهبت الاحتمالات المثيرة الجديدة التي تكشفت عنها الميكنة عقول الصناع والتجار، فقادوا ثورة لا تختلف في مداها وعنفها عن أي ثورة دينية. استطاع هؤلاء المواطنون الأغنياء خلال مدة قصيرة نسبيًا تغيير وجه الحياة في بريطانيا تغييرًا كاملًا.

عندما تصطرع الآمال والأحلام الصاخبة في الشوارع، فعلى المواطنين المسالمين أن يدخلوا بيوتهم ويغلقوا أبوابهم ونوافذهم، حتى تنتهي الفورة. هناك فرق شاسع بين الآمال التي تبدو رقيقة نبيلة وبين الأفعال الفظيعة التي تتبعها. تخطر الآمال كفتيات رائعات الجمال يرقصن ويغنين إلا أنه سرعان ما يتبعهن جيش رهيب يحمل الموت والخراب.

6

لا بُدّ لكي يندفع الرجال في مغامرة تستهدف تغييرًا شاملًا من توفر عدة شروط. لا بد أن يشعروا بالتذمّر من غير

(*) بدأت الثورة الصناعية بميكنة صناعة النسيج، ثم انتقلت إلى صناعة الحديد، وقادت إلى التوسع في استخدام الطاقة البخارية وانتقلت من إنجلترا إلى بقية أنحاء العالم الغربي، ثم إلى بقية أنحاء العالم ،حيث اتخذت اسم «التصنيع» (المترجم).

أن يكونـوا فقراء فقـرًا مدقعًا. ويجب أن يكـون لديهم الشعور بأنهـم عبر اعتناق العقيدة الصحيحة أو اتباع الزعيم الملهم، أو اعتنـاق أساليب جديدة في العمل الثوري، سيصبحون قوة لا تقهـر. بالإضافة إلى ذلك كله، يجـب أن تكون لديهم تطلعات جامحـة إلى المنجزات التي ستجيء مع المستقبل. وفي النهاية، يجـب أن يكونـوا جاهلين جهـلاً تامًا العقبات التـي ستعترض طريقهم. لم يكن لدى الرجـال الذين أشعلوا الثورة الفرنسية أي قـدر من الخـبرة السياسيـة. والشيء نفسـه يصدق على البلاشفـة والنازيـين والثـوار في آسيا. أما الرجـال المجربون ذوو الخـبرة فيأتي دورهـم في مرحلة لاحقـة: لا ينضم هولاء إلى الحركة إلا بعد التحقق من نجاحها. ولعل خبرة المواطنين الإنجليـز السياسيـة هي التـي تجعلهم بمنأى عـن الحركات الثورية.